الرســـالة الرابعـة

الصفات اللازمة للمعلمين التقدميين

من أجل أداء أفضل

أود أن يكون واضحاً منذ البداية أن الصفات التى سوف أتحدث عنها والتى تبدو لزوميتها للمعلم التقدمى ، إنما هى حصيلة ما اكتسبته تدريجيا خلال الممارسة.. أضف إلى ذلك أنها قد تطـــورت أثناء الممارسة فى إطار إدارة سياســـية بأن دور المعلم بالغ الأهمية فى حركة المجتمع . ومن ثم فهى صفات لا يختص بها منذ الولادة ، أو أنها يمكن أن تمنح بقرار أو هدية . ومما يستحق التنبيه أن الترتيب الذى اعتزام إيرادها عليه ليس له دلالة على مراتب أهميتها ، فجميعها ضرورى لممارسة المعلم التقدمى .

وسوف أبدأ بصفة التواضع ، والتى لا تحمل فى هذا السياق على الإطلاق دلالة افتقاد احترام الذات أو الإذعان أو الجبن .. إنها على النقيض من ذلك ، فالتواضع يتطلب الشجاعة ، والثقة بالنفس ، واحترام الذاتِ ، واحترام الآخرين . إن صفة التواضع تعيننا على أن ندرك الحقيقة الواضحة التالية : لا يوجد إنســـان يعرف كل شىء ، ولا يوجد إنسان يجهل كل شىء . ودون التواضع ، يصعب على المرء أن يستمع باحترام إلى أولئك الذين يحكم عليهم بأنهم أدنى بكثير من كفاياته .

والمقصود بذلك أن نمط التواضع الذى يمكننا من الاستماع إلى من هم أقل قدرات منا ، لا يعنى عملاً من قبيل التنازل أو التعاطف ، أو أنه يماثل سلوك أولئك الذين يؤدون قسماً (أقسم بالله بأنى أعد بأنه إذا كانت رؤية المشكلة فى ضوء ما تراه عيناى ليست بالشأن الخطير ، فلسوف استمع بكل اهتمام إلى الملاحظات الصادرة من أولياء أمور طلابى ، رغم ما قد تنم عنه من جهل ووقاحة) كلا ليس أياً من تلك المعانى هو المقصود ، وإنما ننشد الاستماع إلى كل ما يرد إلينا ، بصرف النظر عن المستوى الفكرى لقائليه ، على اعتبار أن ذلك واجب إنسانى يفصح عن موقفنا من الديمقراطية وعن ابتعادنا عن مناهج النخبة . والواقع أننى لا أستطيع أن أرى كيف

يمكن لأى إنسان التوفيق بين قيم الديمقراطية والتغلب على صنوف التحيز من ناحية ، وموقفه المتعجرف المزهو والناتج عن إحساسه بانتفاخ الذات وادعاء معرفة كل شيء من ناحية أخرى . وهنا يتساءل صاحب الذات المتضخمة : كيف يمكن أن أستمع إلى الآخر ، أو أن أقيم حواراً معه إذا لم أستطع أولاً الاستماع إلا إلى ذاتى فقط ، أو أننى غير قادر إلا على رؤية ذاتى فقط، أنه لا شيء ولا أحد غير ذاتى يمكن أن تمسنى أو تحرِّكنى ؟ ومع صفة التواضع المقترنة بقدرة المرء على أنه يخفف من غلواء ذاته ، يصبح قادراً ومستعداً لكى يعلم ويتعلم . والتواضع خير معين على ألا أنغمس فى الدائرة المغلقة لحقائقى . ولعل من أهم فروع التواضع امتلاك الحس العام ، الذى يذكرنا بأن بعض الاتجاهات والمسالك قد تؤدى بنا إلى ما يقرب من الضياع فى الحياة .

إن صفات التعالى المتمثلة فى قولك (أنت لا تعرف مع من تتعامل) ، والغرور فى الادعاء بأنك تعلم كل شيء ، مع الرغبة الجامحة فى أن تجعل معرفتك مطلقة تستحق الاعتراف بها - لا شيء من كل هذه الصفات يمكن أن تنسب إلى الإنسان المتواضع الذى يؤثر الوداعـــة (وليس عدم المبالاة) فى معاملاته . ومع ذلك .. فإن التواضـــع لا يزدهر فى ظروف قلة الأمان وعدم الطمأنينة ، ولكنه يشيع فى ظرف اللاطمأنينة فى الطمأنينة لدى أولئك الأكثر وعياً بأحوالهم . ومن ثم تصبح حالة اللاطمأنينة فى الطمأنينة تعبيراً عن التواضع ، كما أن تعبير اللايقينية فى اليقين ، مغاير لتعبير اليقين الذى يدل على الثقة الزائدة والمغالية فى تقدير النفس وما تعرفه قطعياً .

وعلى العكس من موقع التواضع ، نجد مواقف المتسلط الذى يكون متحيزاً ومدعياً .. حقيقته هى الوحيدة ، ولا غيرها ، ويجب أن تفرض على الآخرين .. ففى حقيقته يكمن خلاص الآخرين ، ومعرفته تضيء ما غمض على الآخرين أو ما جهلوا به ، لذلك ينبغى حينئذ إخضاعهم لمعرفة المتسلط وغروره .

وأعود الآن لتحليل عملية التسلط أو عملية (السلطوية) سواء كانت من جانب الوالدين أو المعلمين . وكما هو متوقع سوف يؤدى التسلط أحياناً إلى اتخاذ الطلاب

مواقف تمرد ، وازدراء لأى حدود أو ضوابط أو نظام. وقد تقود كذلك إلى اللامبالاة، أو الإذعان التام ، والموافقة العمياء ، وافتقاد روح المقاومة لأى خطاب سلطوى ، وإنكار الذات ، والخوف من الحرية .

وحين أشير إلى أن التسلط قد يولد أنماطًا مختلفة من ردود الفعل ، فإنى أدرك أنها على المستوى الإنسانى لا تحدث بطريقة آلية ميكانيكية وبارتياح نفسى . ومن ثم فإنه من الممكن أن نجد بعض الأطفال الذين يتعرضون لظروف الإرغام والتعسف قد لا تصيبهم آثارها السلبية بأية معاناة . بيد أن هذا لن يعطينا رخصة للمقامرة على ذلك الاحتمال ، فنتهاون فى بذل الجهد اللازم لنكون أقل تسلطاً . وإذا كان من الجائز ألا نقوم بذلك من أجل تحقيق أحلامنا فى الديمقراطية، فلا مناص من أن نقوم به احتراماً لبشر فى طور التكوين، هم أطفالنا وطلابنا.

وإلى جانب صفة التواضع التى يعمل بها المعلمون ويتعاملون مع طلابهم ، أضيف صفة **الحب** التى دونها يفقد نشاطهم كل معنى . وحين أشير إلى الحب فإنى أقصد امتداده إلى الطلاب وإلى عملية التدريس ذاتها . وأود أن اعترف أيضاً – ولا أعنى بذلك مجرد عبارة اعتراضية تافهة – أنه لا يمكن للمعلمين أن يجابهوا سلبيات مهنتهم ، دون اعتمادهم على نوع من "الحب المسلح" ، كما يقول الشاعر (بتاجودى ميلو) .

إنه دون ذلك التسلح ما كان فى مقدورهم الصمود حيال كل ما يقع عليهم من ظلم واستهانة الحكومة بهم ، كما يتجلى ذلك فيما يتعاطونه من مرتبات مزرية وعسف فى المعاملة، ولا أعنى بذلك المعلمين من نوع الأمهات المدلَلة ، وإنما أولئك الذين تشهد لهم مواقفهم ومشاركتهم فى الاحتجاجات التى تنظمها نقاباتهم ، وهم الذين يتحملون ثقل العقوبات ، ومع ذلك يظلون على إخلاص فى العمل مع طلابهم .

ومع ذلك يصبح ضروريًّا أن يكون هذا الحب مسلحاً ، فهو حب الكفاح عند من يؤمنون بأنه لابد منه حقًّا وواجباً فى مواقف الرفض أو الإعلان . وهذا هو نوع الحب الذى لا يمكن الاستغناء عنه لدى المعلمين التقدميين ، وعلينا أن نتعلمه .

وعلى أى حال .. فإن هذا الحب الذى أتحدث عنه ، والحلم الذى من أجله أكافح ومن أجله أعد نفسى دائماً لتحقيقه ، يتطلب أن أنمى فى نفسى وفى خبراتى الاجتماعية صفة أخرى هى : الشجاعة لأكافح ولأحب .

والشجاعة كفضيلة ، هى أمر لا أجده خارج نفسى ، لأنها تتضمن الخوف ، ومن ثم فإنها تعنى الانتصار على مشاعر الخوف .

وبداية حين نتحدث عن الخوف ، علينا أن نؤكد أننا نتحدث عن شىء واقعى تماماً ، وبعبارة أخرى فإن هذا الخوف ليس أمراً مجرداً . ثم إن علينا أن نؤكد بأننا نتحدث عن شعور عادى سائد . كذلك فإننا حين نتحدث عن الخوف نجد أنفسنا فى مواجهة الحاجة إلى أن نكون على وضوح تام باختياراتنا ، وهذه تتطلب عمليات وممارسات محددة ، هى الخبرة المطلوبة التى تسبب الخوف .

وإلى المدى الذى أصبح فيه على بينة من خياراتى وأحلامى التى هى سياسية فى مادتها وتربوية فى انتسابى الموصوف مهنيًّا ، وإلى المدى الذى أدرك فيه مع أننى مرب فإننى أيضاً سياسى ، سوف أستطيع أن أفهم بصورة أوضح لماذا يتولانى الخوف ، وسوف أدرك أن ثمة أشواطاً بعيدة يجب أن نقطعها لتحسين حياتنا الديمقراطية . كذلك حين أدرك أنه فى الوقت الذى نمارس تعليماً يستثير بطريقة ناقدة وعى المتعلم ، سوف نجد أنفسنا بالضرورة فى مجابهة مع الخرافات والأساطير التى تشوه حياتنا . وبينما نجابه تلك الخرافات سوف نجابه معها القوة الطاغية السائدة ، حيث إن تلك الخرافات إن هى إلا من تجليات تلك القوة وأيديولوجيتها .

نحن نواجه أنواعاً حقيقية من الخوف ، منها فقدان عملنا ، أو عدم ترقيتنا ؛ لذا تظهر الحاجة إلى وضع حدود لهذا الخوف . وقبل كل شيء نحن نبدأ فى إدراك أن الخوف مظهر من مظاهر كوننا أحياء . وعلى ألا أخفى مخاوفى ، وألا أدعها تشل حياتى . وطالما كنت مطمئناً إلى أحلامى السياسية، متخذاً بعض الأساليب التى تخفف من حدة مخاطرى ، فما علىَّ إلا أن أتابع مسيرتى مع المعركة . ومن ثم تصبح الحاجة لكى أضبط خوفى ، أى " لأعلم " خوفى الذى من خلاله تتولد شجاعتى فى نهاية المطاف . ولذا على ألا أنكر مخاوفى من ناحية ، وألا أسلم نفسى إليها من الناحية الأخرى . والحل بين هذين الطرفين يتمثل فى ضبطها ؛ إذ إنه من خلال هذه الممارسة لعملية الضبط تتخلق شجاعتى التى تشارك فى تلك العملية .

وهذا هو السبب فى أنه مع وجود خوف بلا شجاعة ، وهو الخوف الذى يحطم أو يشل حياتنا ، فإنه لا يمكن أبداً وجود شجاعة بلا خوف . وهذا هو ما تنطق به ألسنتنا ؛ حيث نسعى إلى الحد والإخضاع والضبط لمشاعر الخوف .

والصفة الفاضلة الثالثة فى المعلم التقدمى هى **التسامح** ، ودونها لا يمكن أن يتحقق أى عمل تربوى جاد ، ودونها لا يمكن أيضاً أن تكون أى خبرة ديمقراطية أصيلة تستحق الجهد ، ودونها سوف تفتقد كل ممارسة تربوية تقدمية نفسها . ومع ذلك فإن التسامح ليس هو الموقف غير المسئول لدى أولئك الذين يمارسون اللعب الإيهامى .

إن التسامح لا يعنى السكوت عما لا يحتمل ، كما لا يعنى التمويه بعدم الاحترام، ولا يعنى ملاطفة المعتدى أو إخفاء الغضب . لكن التسامح هو الفضيلة التى تعلمنا كيف نعيش مع من يختلف عنا .. إنه يعلمنا عن طريق المختلف واحترامه .

وعلى المستوى الأول قد يبدو التسامح على أنه نوع من التفضل كأنما هو نوع من السلوك المهذب والمتدبر فى القبول أو فى الصفح عن من تعتبر وجوده غير مرغوب فيه لأنه مختلف عنا . وعلى أى حال فهذا ادعاء ونفاق ، وليس تسامحاً . والنفاق

خطيئة ، وهو خزى وانحلال ، بينما التسامح فضيلة ، وعلى أن أحتضنه ، وان أمارسه باعتباره صفة تكسبنى أولاً الاتساق مع وجودى وكيانى التاريخى أياً ما كان عدم اكتماله ، وثانياً يكسبنى الاتساق فى خيارى السياسى الديمقراطى .

وأنا لا أستطيع أن أرى كيف أنه يمكن أن يكون أى شخص ديمقراطياً دون ممارسة التسامح ، والقدرة على التعايش مع من يختلف عنه باعتباره مبدأ جوهريًّا من مبادئ الديمقراطية .

كذلك لا يستطيع أن يتعلم الإنسان التسامح فى محيط يسوده عدم تحمل المسئولية، فهو بيئة لا تؤدى إلى إنتاج الديمقراطية . وفعل التسامح يتطلب مناخاً تتأسس فيه الحدود ، وفيه من المبادئ التى يلزم احترامها ؛ ولهذا فإن التسامح لا يعنى التعايش مع ما لا يحتمل . ومن ثم فإنه من الصعوبة بمكان أن يتعلم الإنسان التسامح فى نظام تسلطى حيث إساءة السلطة ، أو فى نظام متسيب متساهل حيث تتلاشى حدود الحرية ؛ فالتسامح يتطلب الاحترام والنظام والأخلاق . ومن ثم فإن الإنسان التسلطى المفعم بالتحيزات النوعية الجنسية أو العرقية أو الطبقية لا يقدر أبداً أن يصير متسامحاً ، إلا إذا تخلص أولاً من تحيزاته . ولذلك .. فإن الخطاب التقدمى المتعصب الذى يتناقض مع ممارساته إنما يعتبر خطاباً زائفاً . ومما يتماثل مع هذا التناقض موقف " العلمويين " فى تمسكهم المطلق بالعلم مما يضعهم فى فئة من لا يسلمون بفضيلة التسامح ، حيث إنهم يأخذون قضايا العلم على أنها الحق النهائى القاطع ، وأن كل ما عداه لا يعتد به ، معتقدين بأن العلم وحده هو الذى يقدم لنا المعرفة اليقينية . ومن ثم فإن المنغمسين فى هذا التوجه لا يمكن أن يتسامحوا ، مع أن موقف هذه الجماعة لا يعنى التهوين من شأن العلم .

وأود أن أضيف أخيراً صفات **الحسم، والشعور بالأمان، والتوتر القائم بين الصبر وعدم الصبر** أو التعجل ، **وبهجة العيش** ، إلى الصفات السابقة التى يجب أن ننميها فى أنفسنا إذا ما أردنا أن نكون معلمين متقدمين .

إن قدرة المربى على صنع القرارات تعتبر أمراً ضروريًّا بالغ الأهمية بالنسبة لمهمات عمله ، فمن خلال إظهار قدرته على ذلك يتمكن المربى من تعليم القدرة على الحسم وهى فضيلة صعبة ، والواقع أن صنع القرار أمر صعب إلى الدرجة التى تعنى الانطلاق الحر من أجل الاختيار ، فلا أحد على الإطلاق يقرر أى شىء ، دون أن يقوم بعملية تفاوض واضعاً فى الميزان اتجاهاً فى مقابل اتجاه آخر ، أو مسألة ضد مسألة أخرى ، أو شخصاً فى مقارنة مع شخص آخر . وهكذا .. فإن كل اختيار يعقب كل عملية صنع قرار يستدعى تقييماً دقيقاً وعمل مقارنة بين مختلف البدائل وتفضيل إحداهما ، سواء فى حالات الأشخاص أو المواقف . وعملية التقييم بكل متطلباتها هى التى تعيننا فى النهاية على اتخاذ القرارات .

إن عملية صنع القرار عملية تمزق وحيرة فى عقل الإنسان وهى ليست خبرة سهلة، ولا يمكن أن تحدث إذا لم يوجد ذلك الشعور بالتمزق وتلك الحيرة ، مهما كانت معاناته قاسية .

ولعل من بين مظاهر القصور التى يعانى منها المربون عدم القدرة على صنع القرارات . وهذه من الأمور التى ينظر إليها المتعلمون على أنها تنم عن ضعف أخلاقى أو عدم كفاءة مهنية . وعلى المربين الديمقراطيين ألا يعملوا على إلغاء ذواتهم ، بدعوى أنهم يعتنقون مبادئ الديمقراطية . وعلى النقيض من ذلك ، وعلى الرغم من أنهم لا يتحملون وحدهم مسئولية ما يجرى فى حياة طلابهم ، فعليهم ألا يتهربوا من مسئولية صناعة القرار باسم الديمقراطية . وعلى الموجة نفسها ، فإن عليهم ألا يكونوا مستبدين فيما يتخذونه من قرارات ؛ إذ إن تقديم نموذج لصاحب السلطة الذى لا يتحمل مسئولية القيام بواجباته ، وترك الأمور متسيبة تجرى فى أعنتها لهو بالنسبة للمدرس مصير أشد قتامة وكآبة من مصير إساءة السلطة .

وهناك مناسبات عديدة يتمكن من خلالها التربوى ذو التوجهات الديمقراطية الأصيلة ، تقديم نماذج لصنع القرار فى مشكلة معينة بالتعاون مع طلابه ، بعد تحليله

وبيان مختلف الاحتمالات فى إيجاد حل لها . ثم إنه فى بعض الحالات ، عندما يكون القرار ضمن دائرة اختصاص المربى ، فلا مبرر للتردد فى اتخاذ القرار ، مما يعتبر استهتاراً.

إن التردد فى اتخاذ القرار يمثل افتقادًا للثقة ، وهى ضرورية لكل من يمارس مسئوليات حكومية ، سواء فى الفصل أو المؤسسة أو الشركة أو الدولة ، فضلاً عن ممارستها فى نطاق الأسرة . بيد أن الشعور بالأمان والثقة ، من الناحية الأخرى ، يتطلب الكفاءة العلمية ووضوح الرؤية السياسية والاستقامة الخلقية .

ومرد ذلك كله إلى أنه لا يمكن للمرء أن يطمئن إلى سلامة أعماله ، إذا لم يكن على معرفة بمداخل دعمها بالطرق العلمية ، وعلى دراية ووعى بما يفعله، ولماذا ولأى هدف ينشده . وينطبق ذلك على مفهوم الولاء حيث على المرء أن يعرف الإجابة عن تساؤلات : مع من ؟ ولماذا ؟ وضد من ؟ ولماذا يتوجه هذا الولاء ؟ كذلك لن يطمئن المرء إلى سلامة أفعاله إذا لم تؤد إلى استثارة مشاعره ، أو إلى جرح كرامة الآخرين بما يعرضهم لمواقف محرجة. وتظهر مثل هذه المواقف التى تفتقر إلى المسئولية الأخلاقية أو تشيع فيها السخرية عدم قدرة المربى على أن يرتقى إلى متطلبات رسالته ، والتى تقتضى توافر إمكانات الفعل الناقد والمنضبط ، والذى من خلاله يتهيأ المجال لتحدى طاقات المتعلمين .

وإنما يعكس مثل هذا الانضباط والتنظيم كفاءة المربى التى تأخذ أبعادها فى البروز تدريجياً لدى المتعلمين بطريقة هادئة عقلانية متواضعة ، متجنبة التفجرات الصاخبة المتغطرسة فى الأداء . ومن الناحية الأخرى ، فإن ذلك المنحى سوف يؤثر فى الميزان ، الذى يوظفه المربى فى ممارسته للسلطة حتى يكون آمنا ، شفافاً وحاسماً .

ومع ذلك .. فإن شيئاً من ذلك لن يتحقق إذا افتقد المربى تذوقه الذى يدفعه دوماً إلى الالتزام بالعدالة . والواقع أن أحداً لا يستطيع أن يحوِّل المعلم من ميله نحو طالب أكثر من آخر أو لأى مجموعة دون الأخرى ، مهما كانت الأسباب . وهذا حق من حقوق المعلم ، ولكن ما ينبغى للمعلم ألا يفعله هو تجاهل حقوق الطلاب الآخرين ، مفضلاً الانصراف والتفضيل لحساب طالب معين أو مجموعة معينة .

ثم أن هناك صفة أساسية ينبغى أن يتحلى بها المعلم التقدمى ، وتلك هى **التذرع بالحكمة فى مواجهة التعامل المتوتر بين حالة الصبر واللاصبر أو الاندفاع** ، والمطلوب هو عدم اللجوء إلى أى من هاتين الحالتين . فالصبر وحده يمكن أن يقود إلى حالة الاذعان والاستسلام والتسيب ، مما قد يصرف المربى عن حلمه الديمقراطى ، والذى دونه قد تتولد لديه حالة من الجمود والشلل فى مهماته . وحالة اللاصبر أو الاندفاع وحدها قد تودى بالمربى إلى أفعال هوجاء ومسالك عمياء ، أى إلى فعل من أجل الفعل. وقد يتورط فى ممارساته إلى عدم الاحترام والتقدير لما هو تكتيكى وما هو استراتيجى .

إن الصبر وحده ينحو بالمربى إلى إعاقة الإنجاز للأهداف الرئيسية المنشودة من الممارسة التعليمية ؛ إذ يحولها إلى نشاط ناعم خامد عديم التأثير. كذلك فإن اللاصبر أو الاندفاع يهدد نجاح جهوده ، والتى قد تضيع فى صخب غروره ، حين ينصب نفسه مالكاً التاريخ . وهكذا يستهلك الصبر منفردًا نفسه فى نوع من الثرثرة الكئيبة ، بينما يستهلك اللاصبر منفردًا نفسه فى نشاط محموم يفتقد المسئولية . ومن ثم فإن الفضيلة فى هذه الحالة لا تمثل فى ممارسته أى منهما دون الآخر ، وإنما تكمن فى معاناة من العيش المستمر مع حالة التوتر المتضمنة فيهما معاً . ولذلك فإن قدر المربى أن يعيش ويعمل مع حالتى الصبر واللاصبر ، دون استسلام تام لأى منهما .

ومع أهمية الوجود والعمل المتوازن المشار إليهما ، تبرز صفة أخرى أطلق عليها تسمية **الاقتصاد اللفظى** ، وهى متضمنة فى حالة ميزان الصبر واللاصبر . ويتضح ذلك فى أن الذين يعيشون تلك الحالة بطرفيها نادراً ما يفقدون تحكمهم فيما تكلمون به ، فهم قليلاً ما يتجاوزن حدود ما هو مقصود مع حيويته فى خطابهم . وهذا بينما نجد أولئك الذين يتغلب عليهم حالة الصبر وحدها ، يختنق لديهم غضبهم المشروع ، والذى سوف يتم التعبير عنه فى خطاب ضعيف متهافت . بينما نجد خطاب الطرف الآخر الذى تسيطر عليه حالة اللاصبر المندفع ينحو إلى افتقاد الضبط والتقيد بالحدود . وهكذا يصبح دوماً خطاب الفرد المتذرع بالصبر ذا سمات مهذبة ، بينما يتعدى خطاب اللاصبر ما لا يمكن أن تقبله الحقيقة ذاتها فى شططها وغلوائها .

والواقع أن كلاً من هذين الخطابين المنضبط والمندفع يسهم فى المحافظة على الواقع الراهن ؛ إذ إن الأول لا يفى باحتياجات تطور ذلك الواقع ، بينما قد يتجاوز الثانى كل الحدود الممكنة .

كذلك فإن الخطاب المدرسى الذى يلتزم به أهل الصبر وحده إنما يوحى للمتعلمين بأن أى شىء وكل شىء ، يعتبر مقبولاً ، ويشيع فى جو التعليم إحســـاساً لا نهائيًّا بالصبر . أما أولئك الذين يغشاهم القلق والزهو وعدم الانضباط واحترام الواقعية ، فإن خطابهم قد يجد نفسه وقد انغمس فى حمأة عدم الجدوى وافتقاد المسئولية. وفى جميع الأحوال ، فإن هذين النوعين من الخطاب لن يسهما بأى شكل من الأشكال فى تعليم الطلاب . ثم أن هناك فئة أخرى من أولئك الذين يتسمون عادة بالتقيد المفرط فى خطابهم ، ولكنهم بين الحين والآخر يفقدون انضباطهم ، ومن ثم يتحولون من حالة الصبر المطلق ليقفزوا دون توقع إلى حالة اللاصبر والاندفاع الذى يصعب إيقافه ؛ مما يخلق جوًّا من عدم الأمان والاضطراب لكل من حولهم ، ومما ينجم عنه دائما آثار مخيفة .

وهذا هو سلوك أعداد غفيرة من الأباء والأمهات حين نجد كلماتهم وأفعالهم هذا اليوم متساهلة مع أطفالهم ، لنفاجأ بها فى اليوم التالى مناقضة تماما لما سبق . وحينئذ يتلقى الأطفال خطابًا وأوامر من التسلط العام مما قد لا يقتصر أثره على ما يصيب الأطفال من ذعر ، وإنما يمتد إلى ما قد يصيبهم من عدم الأمان والاطمئنان . ومثل هذا السلوك غير المتسق والمتزن من قبل الوالدين يخل بنمو الاتزان العاطفى لدى الأطفال ، والذى هم فى أشد الحاجة إليه لكى يطرد نموهم . ولابد من التأكيد على أن الحب وحده لا يكفى ، وإنما على المرء أن يعرف كيف يحب .

ومع اعترافى بأن خواطرى حول تلك الصفات اللازمة للمعلم ليست مكتملة ، فإنى أود أن اشرح باختصار صفة الابتهاج بالعيش على أنها فضيلة أساسية فى الممارسة الديمقراطية للتعليم .

وحين أغمس نفسى فى الحياة ، دون أن يعنى ذلك أن أنكر الموت أو أن أجعل من الحياة أسطورة تقدس ، أستطيع أن أحرر نفسى فى سبيل التقبل لمبهجة العيش فيها، دون أن اضطر إلى إخفاء الدواعى التى تثير الحزن لدى فى هذه الحياة ، وهذا يهيِّؤنى لأشيع البهجة فى المدرسة ولأكون من روادها .

ثم أننا إذا كنا مستعدين أو غير مستعدين للتغلب على الزلات أو عدم الاتساق فى حياة ، تهديها فضائل التواضع والمحبة والشجاعة والكفاءة والحسم والصبر واللاصبر والإقصاء اللفظى ، فإننا فى الواقع سوف نسهم فى مدى ما نخلقه من أجواء مدرسية سعيدة بهيجة . وعلينا أن نشق الطريق إلى السعى نحو مغامرة مدرسية تنشد مدرسة تتحرك إلى الأمام ، غير هيابة من مواجهة المخاطر ، رافضة للجمود والتقوقع . ولسوف تكون مدرسة قادرة على أن تفكر ، وأن تشارك ، وأن تخلق ، وأن تتحدث ، وأن تحب ، وأن تتنبأ ، وأن تحتضن حرارة العيش فى الحياة ، وأن تقول لها نعم إنها مدرسة لا تهدأ ولا تتنازل .

حقًّا أنه لمن أيسر الطرق فى التعامل مع ما تصنعه عوائق الاستهانة الحكومية وإملاءات السلطات المعادية للديمقراطية ، اللجوء إلى ذلك الاستسلام القدرى الذى يقع فيه كثيرون منا . ويثور السؤل : " ماذا أستطيع أن أفعل سواء أسمونى معلماً أو أماً مدلَلة حنون ، وأنا ما أزال أعانى من قلـــة مرتبى ، ومن عدم الاكتراث بمهنتى ، كما لا أنال ما أستحقه من رعاية ؟ نعم ، ولأدع الأمور تجرى " صحيح أن هذا هو أكثر المداخل الملائمة لسكة السلامة ، لكنه موقف من أراد أن يعتزل ساحة الكفاح ، وأن يعتزل التاريخ . إنه موقف أولئك الذين يرفضون التقدم نحو حلبه الصراع ؛ مما يؤدى افتقاده إلى الحط من الكرامة فى الحياة .

إنه ليس ثمة حياة أو وجود إنسانى خال من المقاومة والصراع . والصراع مشارك فى وعينا ، وبإنكاره إنما نتجاهل أكثر الجوانب الواقعية فى خبراتنا الاجتماعية الجوهرية. وفى محاولتنا التهرب من معاناة الصراع إنما نحافظ على الأوضاع الراهنة ، ومن ثم فإنى

لا أرى بديلاً أمام المربين ، سوى التوحد فى إطار مختلف اهتماماتهم من أجل الدفاع عن حقوقهم . وتشمل هذه الحقوق حق التمتع بالحرية فى تدريسهم ، وحق التعبير عن آرائهم ، وحق توفير ظروف أفضل لممارسة أعمالهم التربوية ، وحق منحهم فرص ترك التدريس لمهمات علمية مدفوعة ينمون خلالها معارفهم ، وحق الحفاظ على الاتساق الفكرى دون ضغوط ، وحق نقد السلطات دون خوف أو عقوبة (مما يستلزم واجب النقد المخلص الموضوعي) وحق المســـئولية فى الجدية ، وعـــدم الاضطرار إلى الكذب والنفاق ؛ من أجل ضمان البقاء فى العمل من أجل لقمة العيش .

وعلينا أخيرًا واجب الكفاح حتى لا يتم الاعتراف بهذه الحقوق فحسب ، وإنما أن يجرى احترامها وتنفيذ اقتضاءاتها . وفى بعض الأحيان قد نحتاج إلى الكفاح جنباً إلى جنب مع النقابات ، كما أنه فى بعض الأحيان الأخرى قد نضطر إلى الكفاح ضدها ؛ وبخاصة إذا كانت قياداتها ذات توجهات متحيزة ، فئوية كانت أم عرقية ، يمينًا أم يسارًا . وفى أحيان أخرى علينا كإدارة تقدمية أن نواجه ذلك الغضب العنيف لجماعات الأفكار البالية من التقليديين المحافظين الذين يرى بعضهم أنه من التقدميين ، هذا فضلاً عن مواجهة أولئك الليبراليين الجدد الذين يرون أنفسهم ذروة التاريخ .